ما بعد أوسلو: إشكاليات أمام الهوية الوطنية

وسام الرفيدي*

تفترض الورقة أن الهوية الفلسطينية، ومنذ مشروع أوسلو وقيام سلطة الحكم الإداري الذاتي واندحار ظاهرة المقاومة الفلسطينية العلنية في الخارج، قد تعرضت لخطر التبديد. وما عزز من ذلك تراجع المكانة السياسية والتمثيلية للمنظمة لصالح سلطة الحكم الإداري، باعتبار المنظمة التجسيد المؤسساتي الكياني (الدولاني بمعنى ما) للوطنية الفلسطينية.

لفحص هذه الفرضية والسعي لإثباتها تعود الورقة سريعاً لاستعراض نشأة الهوية الوطنية وتبلورها. الورقة تعتقد أن تبلور الهوية الوطنية إنما تم بعاملين أساسيين: الأول انهيار الجامع الكياني المستند للانتماء الديني (الخلافة العثمانية)، والثاني إنطراح الخطر الصهيوني كمشروع للتنفيذ العملي في فلسطين. وقد عمل العاملان على بلورة الهوية الوطنية الفلسطينية، وتحديدا في عشرينيات القرن الماضي.

وعليه، تلحظ الورقة أن الصراع وتبلور الأدوات الوطنية التعبيرية عن الكيانية الفلسطينية هي المحفز وراء نشوء وتبلور هذه الهوية، وبالعكس فإن انهيار أو تفكك تلك الأدوات وتراجع هذا الصراع قبل أن تتجسد الهوية في وطن متحرر ودولة قومية...هذا ما يهدد الهوية الوطنية. لذلك تتعرض الورقة لمحطات أساسية لتعزز دور الهوية: نشوء المؤسسات المدينية في فلسطين قبل 48، تأسيس منظمة التحرير، انطلاق المقاومة الفلسطينية المسلحة، الانتفاضة الأولى.

بالمقابل تركز الورقة على ما للمتغيرات بعد أوسلو من آثار تدميرية على الهوية الوطنية: إلغاء الميثاق الوطني كإطار محدد للهوية الوطنية، تراجع مكانة منظمة التجرير، تفكك العلاقة بين الداخل والخارج، تزايد

---

* منسق برنامج المناصرة في مؤسسة لجان العمل الصحي.

الدور التمثيلي الفعلي، لا الرسمي، لسلطة الحكـم الإداري بـديلاً لـدور المنظمة التمثيلي، تزايد سلسلة من الانتماءات الجهوية والدينية والعشائرية، تزايد دور المنظمات غير الحكومية وما للعديد منها مـن توجهـات نحـو (عالمية ما) على حساب توجهات وطنية.

في هذا السياق تولي الورقة أهمية للتفكـك الحاصـل بـين الـداخل والخارج من جهة وبين الضفة وغزة من جهة ثانية وتسعى لرؤية خطـر التفسخ الجغرافي/ السياسي، وتفكك منظمة التحرير، والصراع (السلطوي) الفتحاوي الحمساوي على مكونات الهوية الموحدة، وتتـساءل، فـي ذات السياق، حول مدى تأثير خطاب التيار الإسلامي المقاوم على تلك الهويـة في هذه المرحلة، ارتباطاً بمفرداته ذات الصبغة الإسلامية بديلاً، وإن ليس تاماً، للمفردات ذات الصبغة الوطنية الأهم..

وللتدليل على السياق الجديد الذي تنطرح فيه قضية الهوية بعد أوسـلو من المفيد التطرق لمفهوم (المواطنة) الذي تسعى بعض المنظمـات غيـر الحكومية، وبتمويل غربي، أمريكي/ بريطاني بشكل خـاص، لترويجـه، كمفهوم بديل وتجزيئي يقف على النقيض، في هذه المرحلـة وفـي هـذا السياق، مع مفهوم الوطنية الشامل لعموم الشعب الفلسطيني. وما سـيتركه هذا الترويج على التكوينات السياسية والثقافية للشعب في الوقت الذي يجب أن تتوجه الجهود لإعادة تأكيد مكونات الهوية الوطنية: وحدة الجغرافيـة ، وحدة الهدف الوطني، وحدة الأدوات التعبيرية.

في النهاية ستسجل الورقة الاستخلاصات الأساسية وما يمكن اعتبـاره توصيات للجهد الوطني المطلوب للدفاع عن الهوية الوطنية من الانـدثار التام.